اعترافات مؤمن

للدكتور محمد مندور

لا يستطيع مثلي أن ينكر لجلال الفكر البشري، وهو منبع شقائنا وعزائنا على السواء، ولكنني أحسب أن هناك أنواعاً من ذلك الفكر، فالمرء قد يفكر بعقله وقد يفكر بخياله وقد يفكر بقلبه. والتفكير بالعقل هو ما ينفر منه طبعي وذلك لأنه ما لم يحلق الفكر إلى عالم الصور الجميلة بخيال قوي أو يرسب إلى أعماق القلب بحرارة حية لم تهتز له نفس ولا اطمأن إيمان، وإن كنت لسوء الحظ مضطراً كغيري من البشر أن أكسر في بعض الأحايين جناح الخيال وأن أطفىء حرارة القلب حين لا يكون بد من أن تتناول الأمور ببرودة العقل اللصيق بالأرض.

منذ أزمة الإيمان التي صادفتني في اليفاعة كما أحسبها صادفت غيري وأنا دائم التفكير في حقيقة ذلك الإيمان. ولقد مرت بي عقب تلك الأزمة مباشرة أعوام كنت أناقش فيها كل من ألقي عن المشاكل التي يثيرها العقل عن وجود الله وكيف كان ذلك الوجود وعن علاقته بهذا العالم وما فيه من خير وشر. ولا شك أنني كنت أبحث عندئذ على غير وعي مني عن يقين أطمئن اليه، ولكنني أعترف في بساطة أنني ما قرأت ولا سمعت ما يوجب ذلك اليقين، حتى أصابني ما يشبه الملل فلم أعد أطيق الحديث في هذه الأمور، وأصبحت كلما سألني عنها سائل أو تحدث بها متحدث وميته بالتفاهة وذلك بوعي مني أو غير وعي، ولكنها تفاهة لا يمكن أن أعفيه منها مهما بلغ سؤاله أو حديثه من عمق أو أصالة. ولقد حاولت غير مرة أن أتبين السر في موقفي هذا فوجدته، أو خيل إلي أني قد وجدته، في أمرين: أولهما أن العقل نفسه نشاطه الأكبر موجه إلى تقويض ذاته، فهو لا يزال يبحث عن حدود قدرته ويتناول بالشك ما يصل اليه من آراء ونظريات يعاود فيها البحث فيقوضها حتى أصبح نقده لنفسه خليقاً بأن يهدم ثقتي فيه. وثانيهما أنني كنت أحس دائماً في غموض أن تطاول العقل إلى ما لا يستطيعه دليل ضعف فيه لا قوة، ولهذا كم كانت فرحتي يوم سمعت عميداً لكلية الطب بباريس يقول: إن من أمارات الضعف العقلي أن نبحث بعقولنا عما لا نستطيع أن ننفذ إليه، والعقل القوي هو الذي يعرف حدود قدرته». لقد خيل إليّ عندئذ أن هذه الألفاظ قد أضاءت مظلماً في نفسي، فرأيت بوضوح ما كنت أحسه غامضاً. ومنذ ذلك الحين آمنت بتفاهة من يناقشني في الإيمان بعقله فهذا رجل ضعيف العقل مبدد لنشاطه هدراً

أنا إذن لا أحب الحديث عن الإيمان ولا أومن بالدعوة إليه، ولكنني مع ذلك مؤمن إيماناً راسخاً، وليست لي في الحياة قوة غير هذا الإيمان، فقد تهب أعاصيرها ومن الممكن أن تتنكر لي يوماً عناصرها ذاتها، ولكن ذلك لا أظنه ينال مني شيئاً، وذلك لا اعتزازاً مني بعروض حياة أو مواهب نفس، ولكن لأنني مؤمن بإله عادل اطمأنت إليه نفسي بحيث لا أذكر أنني قد اتجهت إليه يوماً فلم أجد تأييده، وعند ما أدعوه يسكت في نفسي طنين الفكر فلا أحس غير الصمت الساكن ولا أفكر حتى في وسائل القوة التي أبغيها؛ وإنما أساق بعد ذلك في غير وعي إلى تلك الوسائل كالآلة المسيرة وهي تعرض لخاطري في لمحات خاطفة فأسير إليها دون أن أتبين حتى مواقع أقدامي، وإنما أكتفي بما أستشعر من ثقة من أنني ما دمت قد تركت السكون إلى الحركة فإنني في سواء السبيل. ومهما تكن بعد ذلك من صعوبات، فلا يمكن أن يساورني شك في أنها ستذلل ولو في اللحظة الأخيرة وذلك هو الإيمان الهادي

من أين لي بهذا الإيمان وقد لقيت ضروباً من الناس وقرأت ألواناً من الكتب، ودرست أنواعاً من اللغات والثقافات، بل وخبرت الحياة هزلها وجدها في كافة الأجواء وتحت مختلف السموات. أستطيع اليوم بعد أن نضجت ملكاتي أن أقول إنني لم يقتنعني أحد به، ولا اكتشفته في بطون كتب، ولا تلقيته من أفواه بشر،

بل ولا غرسته بمواصلة القيام بشعائره كما نفرس فى النفس مختلف العادات بدوام مزاولتها، وإنما هو إحساس قديم مكنت له فى نفسى حوادث صغيرة كانت بينى وبين أبى

ولا أرى ضيراً من أن أقص طرفاً منها على القراء فتلك تجارب بشرية قد تكون أجدى فى إلقاء بعض الضوء على مشكلة خطيرة هى مشكلة الإيمان من كثير من موسوعات علوم التوحيد والكلام ، ولها على الأقل ميزة الصدق النابض بالحياة ، وهى صادرة عن نفس فيها من القوة ما لا يصرفها عن أن ترد كبار الأمور إلى صغائر الأشياء عند ما تؤمن أن تلك الحوادث الصغيرة هى الأسباب الحقيقية التى تتضاءل إلى جوارها كبرياء العقل ومغالطات الإحساس

عند ما أخذت أدرك علمت أن والدى قد بنى بأحد حقوله « خلوة » لا منفذ لها غير الباب وأنه قد هجر زوجته وأبناءه أربعين يوماً ليقيم فى تلك « الخلوة » يعبد الله فيها آناء الليل وأطراف النهار لا يرى أحداً ولا يراه أحد ، وإنما يحمل له الطعام من خصاص الباب . ولقد أثار هذا الخبر خيالى فكنت ألاحق أبى بالسؤال عنه ولكنه رجل كتوم لسره فلم أحظ منه بجواب غير أن دافعه كان عبادة الله وكفى . ثم علمت أن الشباب كان قد ساقه فى مهاوى فلم يجد عصمة خيراً من معاهدة أحد علماء الدين على التوبة إلى الله . وكان هذا العالم نقشبندى المذهب وكان رجلاً خيراً ، فلم يمد تأثيره على والدى حد توجيهه نحو تجنب الإثم ، وعبادة الله ، والإحسان إلى الناس ، وقراءة كتب الدين . ولكم من مرة حاولت أن أعرف شيئاً عن هذه الطريقة فكان أبى يرفض الإدلاء بشىء ، مكتفياً بأن يخبرنى بأن تلك أسرار لا يجوز أن تباح ، ومن غريب الأمر أننى علمت منذ ثلاثة أشهر فقط أن لفظة نقشبند معناها النقش على القلب . واستنتجت من ذلك أن سر هذه العبادة هو أن يستشعر الفرد دائماً أن اسم الله منقوش على قلبه . ولقد لاقيت والدى منذ أيام فأخبرته فرحاً مسروراً أننى قد عرفت معنى اللفظة دون بحث عنه ، ولكن بتوفيق من الله ساقه إلىّ سوقاً . فدهش الرجل وقال : « هو هذا وهو سر العبادة » وإذن فقد خلا أبى لعبادة الله أربعين يوماً ، وتحرك خيالى لتلك الخلوة ، ولكننى لم يكشف لى عن سرها ، واقتنعت بأنه لا يجوز لى أن أتطاول إلى معرفة هذا السر ، ولقد آمن أبى سنين طويلة بأنه قد نقش اسم الله على قلبه واتخذ من هذا النقش سبيلاً إلى حمده منيباً وسالباً ، وسمت بذلك ، ولكنى أيضاً لم أكتشف سر هذا الحمد ، وآمنت أنه لا يجوز لى أن أتطاول إلى كشفه ، وهكذا تهيأت نفسى إلى الإيمان بالمجهول والاطمئنان إليه والثقة به ، وأكبر ظنى أن الخير ما أراد الله . فلو أن أبى بصرنى بما أردت لخلت نفسى من الأسرار ولأصابها العقم . واتفق أن أبى لم يستطع أن يتم حجه فى بعض المرات إذ أصيب بنقرس شديد فى السويس وأنا عندئذ فى السادسة من عمرى ، وألزمه المرض الفراش عامين كاملين قاسى فيهما من الألم ألواناً حتى لا أزال حتى اليوم كلما ذكرت أنينه اقشعر جلدى. ولست أدرى لأى سبب ارتبط هذا المرض فى نفسى بالإيمان حتى لأحسبه ثمن ما أفاض الله على والدى منه ، ولا زلت منذ ذلك أومن بأنه لا بد أن يبتلى الله المؤمن ليختبر إيمانه وأن المرء لا بد تاج ما سلم الإيمان فى قلبه

وعندما اختارتنى الجامعة لبعثتها حدث حادثان صغيران كان لهما فى نفسى أبلغ الأثر : أولهما أننى قبل سفرى رتبت كتبى فى صندوق كبير وبغير وعى منى وضعت « المصحف » على قمة الكتب ، ورأى والدى ذلك عرضا فسر سروراً لم أقصد إليه ، ولربما جاء بتوفيق من الله. وحدث إخوتى عما رأى قائلا « إن إخاكم فلان سيكون الله دائما معه وسيوفق فى كل مايعمل » فسألوه « ولم ذلك » فأجاب « لأننى لاحظت أنه وضع كتاب الله فوق كل كتاب » ثم إننى فى يوم السفر فوجئت بهدية من والدى أوصانى أن أحتفظ بها مدة غيبتى وأن أعود بها إليه ، وكانت تلك الهدية عبارة عن منديل للشيخ العالم النقشبندى الذى عاهده والدى على الهدى . ولقد أخذت المنديل واحتفظت به تسمة الأعوام التى مكثتها بأوروبا وعدت وهو لا يزال إلى اليوم بين ملابسى . ولا أستطيع أن أزعم أننى قد علقت به إيماناً خاصا أو قوة معينة بل ولا فكرت فى ذلك ، ولكنه نوع من الاطمئنان السلبى الريح . وقد اختلطت فى نفسى قيمة الهدية بمحبتى لمهديها وإيمانى به ، وكان لهذين الحادثين فضل دائم فى ردى إلى الإيمان كلما تجهمت لى الحياة .

ولقد اتخذ الإيمان فى نفسى وجهة الإحسان إلى الغير ، حتى لأحسب أننى عاجز عجزا أصيلا عن بغض أحد ، فقد يقسو قلمى وقد يلذع لسانى ، ولكننى ما عدت إلى نفسى إلا أحسست بفيض من التسامح لا أستطيع دفعه . وأكبر ظنى أن هذا الاتجاه كان أيضا لإشعاع من والدى ، وليسمح لى القراء أن أقص حادثا عائليا كان له فى هذا الاتجاه أكبر الأثر